● كانت امرأة الفرح التي يحبها سرحان خارج الزنزانة ، تعد شيئا من أجل عيد متوقع . كانت تهبط من الغيم المعلق على أصابع الشجر . وكانت الصحراء كالبحر ، صالحة للرؤية . وكان شعراء كثيرون ، وفرسان يتذكرون فلسطين ، ويدعونها لحفل الزفاف .

وكان سرحان يؤكد لنا ان امرأة الفرح ليست هي فلسطين ، وان كانت تشبهها في الحالة الوجودية وفي الوعد . وكان الناس لا يصدقون ، لان سرحان — كما يبدو لهم — ممنوع من التفريق بين المرأة والخارطة . كل ما يحبه سرحان يجب أن يكون فلسطين .

● سألناه عن الامر ، فأكد لنا أن الرجل لا يتزوج ترابا .

— حتى لو كان سجينا مثلك !.

ارتبك سرحان ، وصارت مشيته الرضيعة ثقيلة لان الاسئلة كانت شاقة ، فآثر الحديث عن الحرب :

— من هي عروس الحرب ؟

لم نرتبك ، لاننا نتقن الحوار . وأجبنا دفعة واحدة :

أن يولد شيء ما ، أن يولد . هذه هي عروس الحرب .

— وماذا عن الارض ؟ وماذا عن فلسطين ؟.

— هذا الشيء الذي يولد هو الأهم ، لانه قادر على أي شيء. المهم أن تكتمل الولادة ، فهي قابلة الارض وهي قابلة فلسطين .

● وفي رحم الحرب ، كانت تجري العملية الكبرى . وكنا نتغير . من شكل هلامي الى جنين . كنا نتكلم لغة واحدة . ونموت معا بلا مناقشة . كنا نولد . وكان الحلم الذي يشبه المرض سابقا يتحول الى طين ونار ، فنرتديه ونذهب الى الولادة .

وفي كل حرب ، كان سرحان يجهض . يكتب رسائل ويعلقها بمسامير الهواء على جدران الزنزانة . كانت رسائله تصل اليه ، فيتعلم المشي من جديد ، ويعود الى رحم الولادة من جديد :

لانني لا أريد ولادة مشوهة .

وبين يوم الغفران وليلة القدر ، تحول جسم سرحان الى جزيرة .

قال أدونيس : لا أحد يولد الا من رماده . وقال سرحان : ها هو رمادي يملأ الارض والبحر . أطلت أعشاب كثيرة على الصحراء ، وعاد الأسرى .. فالى أين أعود ؟

نصف الحرب نصف ولادة .

وما زلت معلقا على مسامير الهواء .

قلنا : لا يولد أحد الا من رماده .

● كانت شوارع كثيرة تترنح من المفاجأة . استعدنا القدرة على المفاجأة . وكانت شفاه كثيرة تتوقف عن القبل . وكان النصف . نصف معركة . نصف هزيمة . نصف